س . ا . ع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

هؤلاء ثلاثة من الأدباء تجمعهم صفة العُزوبة ، ويحبّون المرأة حباً خائفاً يقدّم رِجلاً ويؤخر أخرى ؛ فلا يُقبِل إلا أدبر ، ولا يعزم إلا انحلّ عزمه . بلغوا الرجولة وكأنْ ليست فيهم ؛ وتمرّ بهم الحياة مرورَها بالتماثيل المنصوبة ، لاهذه قد وُلِد لها ولا أولئك ؛ ومابرحوا يجاهدون ليحتملوا معانيَ وجودهم ، لاليطلبوا سعادة وجودهم ، ويُغَــرقون في شعوذة الحياة بالنهار على الليل وبالليل على النهار ، يحاولون أن يجدوا كالناس أياماً وليالىَ ، إذ لا يعرفون لأنفسهم من العزوبة إلا نهاراً واحداً نصفه أسود مُقفر مظلم .

فأما « س » فرجل « كشيخ المسجد » يكاد يرى حصير المسجد حيث وطئت قدماه من الأرض . . . ذو دين وتقوى مايزال بهما ينقبضُ وينكمشُ ويتزايل حتى يرجع طفلاً في الثلاثين من عمره . . . وهو حائر بائر لا يتجه لشيء من أمر المرأة وقد فَقَدَ منها مايحلّ وما يحرم ، ولاجرأة لنفسه عليه فلا جرأة له على الـموبقات ، ولايزين له الشيطان ورطةً منها إلا امّـلس منه ، فإن له ثلاثة أبواب مفتوحة للهرب ؛ إذ يخشى الله ، ويتوقّى على نفسه ، ويستحيي من ضميره .

وأما « ا » فرجل مِعْزابةٌ ، ولـكنه كالاسفنجة امتلأت حتى ليس فيها خلاء لقطرة ، ثم عُصِرت حتى ليس فيها بَلال من قطرة ؛ وقد بلغ مافي نفسه وقضى نَهْمتَه حتى اشتفى مما أراد ؛ ثم قلب الثوب . . . فاذا له داخلةٌ ناعمة من الخزّ والديباج ، وإذا هو « الرجل الصالح » العفيفُ المتَخلّة ماتنطلق له نفسٌ إلى مأثم ، ولايعرف الشيطانُ كيف يتسبّب لصلحه ومراجعته الود . .

وأما « ع » فهو كالأعرج ؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئاً برجل واحدة ، ولـكنه يمشي . . . وهو « ملك الشوارع » لايزال فيها مقبلاً مدبراً طرَفاً من النهار وزُلَفاً من الليل ؛ فاذا لم يكن في الشارع نساء ظنّ الشارعَ قد هرب من المدينة وخرج من طاعته . ولهذه الشوارع أسماء عنده غير أسمائها التي يتعارفها الناس ويستدلّون بها . فقد يكون اسم الشارع مثلاً « على الحكيم » ويسميه هو « شارع ماري » . . . ويكون اسم الآخر « شارع كتشنر » فيسميه « شارع الطويلة » . . . ودَرْبٌ اسمه « درب اللاّح » واسمه عنده « درب المليحة » . . وهلم جرّا ومَسْخاً . وإذا أراد صاحبُنا هذا أن يسخر من الشيطان دخل المسجد فصلّى ، وإذا أراد الشيطان أن يسخر منه دحرجه في الشوارع . . .

* * *

وافيتُ هؤلاء الثلاثة مجتمعين يتدارسون مقالة « تربية لؤلؤية »[1] يناقشونها بثلاثة عقول ، ويفتّشونها بستّ عيون ؛ فأجمعوا على أن المرأة السافرة التي نبذت « حجابَ طبيعتها » على مابيّنته في تلك المقالة — إن هي إلا امرأة مجهولة عند طالبي الزواج بقدر ماتألفت أن تكون معروفة ، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحة قدر ما اقتربتْ من خيالها الفاسد ، وأتقنتْ الغلط ليصدّقها فيه الرجل فلم يكذبْها فيه إلا الرجل ، وجعلتْ أحسنَ معانيها ما ظهرت به فارغةً من أحسن معانيها . . .

وأردت أن أعرف كيف تنتصف الطبيعة من الرجل العَزَب للمرأةالتي أهملها أو تركها مهملة . . . وأين تبلغ ضربتها في عيشه ، وكيف يكون أثرها في نفسه ، وكيف تكون المرأة في خائنة الأعين ؛ فتسرحت مع أصحابنا في الكلام فنّاً بعد فن ، وأزلتُ حِذارهم الذي يحذرون حتى أفضَوْا إليّ بفلسفة عقولهم وصدورهم في هذه المعاني .

قال « س » : حسبي والله من الآلام وآلام معها — شعوري بحرماني المرأة ؛ فهو بلاء منعني القرار ، وسلبني السكينة ؛ وكأنه شعور مثل الوحدة التي يعاقَب السجينُ بها مصروفاً عن الحياة مصروفةً عنه الحياة ؛ تجعله جدرانُ سجنه يتمنى لوكان حَجراً فيها فينجوَ من عذاب إنسانيته الذليلة المجرمة المخلّى بينها وبينه توسِعُه مما يكره ؛ شعورٌ بالوحدة والعُزلة حتى مع الناس وبين الأهل ، فما في الاعواطفُ خُرسٌ لاتستجيب لأحد ولايجاوبها أحد في « ذلك المعنى » .

وتمام الذلة أن يجد العَزَبُ نفسَه أبداً مُكْرَهاً على الحديث عن آلامه بكلّ من يخالطه أو يجلس إليه ، كأنه يحمل مصيبة لا ينفّس منها إلا كلامه عنها . وهذا هو السرّ في أنك

(١) نشرت بالعدد ٦١ من الرسالة .

لايجد عزباً إلا عرفته ثرثاراً لا تزال فى لسانه مقالة عن معنى أو رجل أو امرأة ، وأصبحته كالذباب لايطير عن موضع إلا ليقع على موضع .

ومع جهد الحرمان جهدٌ شرٌّ منه فى المقاومة وكف النفس ، فذلك تعب يهلك به الآدمى إذ لا يدعه يتقار على حالة — من الضجر — فما تنازعه الطبيعة إليه ، وهو كالنزع فى أعصابه يحسها تشد لتقطع ، ودائماً تشد لتقطع .

وقد رهقنى من ذلك العنت النسوى ماعيل به صبرى وضعف له احتمالى ؛ فما أرانى يوماً على جمام من النفس ، ولا ارتياح من الطبع ؛ وكيف وفى القلب مادة همٍ ، وفى النفس علة انقباضها ، وفى الفكر أسباب مشغلته ؟ وقد أوقدت سورة الشباب نارها على الدم ، تلتمع فى الأحشاء ؛ وتطير فى الرأس ، وتصبغ الدنيا بلون دخانها ، وفى كل يوم يتخلف منها رماد هو هذا السواد الذى ران على قلبى .

وما حال رجل عذابه أنه رجل ، وذله أنه رجل ؟ يلبس ثيابه الانسانية على مثل الوحش فى سلاسله وأغلاله ، ويحمل عقلاً تسبُّه الغريزة كل يوم ، وتراه من العقول الزيوف لا أثر للفضيلة فيه ؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنون الفكرة الثابتة ، فما يخلو إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة إلا أخذته الغريزة مجترحاً جريرة فكر . . .

وفى دون هذا ينكر المرء عقله ؛ وأى عقل تراه فى رجل عزب يقع فى خياله أنه متزوج ، وأنه يأوى إلى « فلانة » وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته ، وأنه من أجلها كان عزوفاً عن الفحشاء بعيداً من المنكر ، وفاء لها ، وحفظاً لعهد الله فيها وقد دلهته بفنونها التى يبتدعها فكره ؛ وهى ساعة تؤاكله على الخوان ، وساعة تضاحكه ، ومرة تعابثه ، وتارة تجافيه ، وفى كل ذلك هو ناعم بها ، يحدثها فى نفسه ، ويسمر معها ، ويتصنع لها وتتصنع له ؛ ويعاتبها أحياناً فى رقة ، وأحياناً فى جفاء وغلظة ؛ وقد ضربها ذات مرة . . ؟

ألا إن المرأة عندى هى هذا الجنون الذى يرجع بى إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا ، فيرمى بى فى كهف أو غابة رجلاً عارياً متوحشاً متأبداً ليس من الحيوان ولا من الانس ، دنياه أحجار وأشجار ، وهو حجر له نمو الشجر .

لقد توزعت المرأة عقلى فهو متفرق عليها وهى متفرقة فيه ، لا أستطيع والله أن أتصورها كاملة ، بل هى فى خيالى أجزاء لايجمعها كلٌ ؛ هى ابتسامة ، هى نظرة ، هى ضحكة ، هى أغنية ، هى جسم ، هى شىء هى هى هى . أكل تلك المعانى هى المرأة التى يعرفها الناس ، أم أنا لى امرأة وحدى ؟

وإنى على ذلك لأتخوف الزواج وأتحاماه ؛ إذ أرى الشارع قد فضح النساء وكشفهن ؛ فما يرينى منهن إلا امرأة تزهى بثيابها وصنعة جمالها ، أو امرأة كالهاربة من فضائلها ؛ والبيت إنما يطلب الزوجة الفاضلة الصناع ، تخيط ثوبها بيدها فتباهى بصنعته قبل أن تباهى بلبسه ، وتزهى بأثر وجهها فىّ ، لا بأثر الساحيق فى وجهها . وإن مكابدة العفة ، ومصارعة الشيطان ، وتوهج القلب بناره الحامية ، وإلمام الطيرة الجنونية بالعقل — كل ذلك ومثله معه أهون من مكابدة زوجة فاسدة العلم أو فاسدة الجهل ، أبتلى منها فى صديق العمر بعدو العمر .

إن أثر الشارع فى المرأة هو سوء الظن بها ، فهى تحسب نفسها معلنة فيه أنوثتها وجمالها وزينتها ، ونحن نراها معلنة فيه سوء أدب وفساد خلق وانحطاط غريزة . ومن كان فاسقاً أساء الظن بكل الفتيات ، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله فى الأخرى ؛ ومن كان عفيفاً سمع من الفاسق فوجد من ذلك متعلقاً يتعلق به ، وقياساً يقيس عليه ؛ والفتنة لاتصيبن الذين ظلموا خاصة .

آه لو استطعت أن أوقظ امرأة من نساء أحلامى . . !

* * *

وقال « ا » : لقد كانت معانى المرأة فى ذهنى صوراً بديعة من الشعر تستخفنى إليها العاطفة ، ولا يزال منها فى قلبى لكل يوم نازية تنزو . وكانت المرأة بذلك حديث أحلامى ونجىّ وساوسى ، وكنت عفيف البنطلون[1] ؛ ولكن النساء أيقظننى من الحلم ، وفجعننى فيه بالحقيقة ، ووضعن يدى على ماتحت ملمس الحية . ولو حدثتك بجملة أخبارهن ، وما مارست منهن لتكرهت وتسخطت ، ولأيقنت أن كلمة تحرير المرأة إنما كانت خطأً مطبعياً ، وصوابها : تجرير المرأة . . فهؤلاء

(1) يقول العرب فى الكناية عن العفة : هو عفيف الازار ، وترجمتها فى عصرنا مارأيت .

النساء أو كثرتهن — لم يُذِلن الحجاب إلا لتخرج واحدة مما تجهل إلى ماتريد أن تعرف، وتخرج الأخرى مما تعرف الى أكثر مما تعرفه، وتخرج بعضهن من إنسانة إلى بهيمة

لقد عرفتُ فيمن عرفت منهن الخفيفةَ الطيّاشة، والحمقاء المتساقطة، والفاحشة ذات الريبة؛ وكل أولئك كان تحررهن أي تجررهن — تقليداً للمرأة الأوربية؛ تهالكْن على رذائلها دون فضائلها، واشتدّ حرصهن على خيالها الروائي دون حقيقتها العلمية، ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لا نأخذ الرذائل كما هي، بل نزيد عليها تَضْعُفْنا فاذا هي رذائل مضاعفة.

كان الحلم الجميل في الحجاب وحده، وهو كان يُسَعِّر أنفاسي ويستطير قلبي، ويرغمني مع ذلك على الاعتقاد أن ههنا علامة التكرّم ورمز الأدب وشارة العفة، وأن هذه المحصّنة المخدّرة عذراءَ أو امرأةً لم تُلق الحجابَ عليها إلا إيذاناً بأنها في قانون عاطفة الأمومة لاغيرها؛ فهي تحت الحجاب لأنه رمز الأمانة لمستقبلها، ورمزُ الفصل بين مايحسن وما لا يحسن، ولأنّ وراءه صفاءَ روحها الذي تخشى أن يكدّر، وثباتَ كيانها الذي تخشى أن يُزعزع.

قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النساء بأنواع الحلي وصنوف الزينة والكسوة الحسنة: «ياهؤلاء، إنكم إنما تطلبونهن محبةَ الأغنياء لامحبة الأزواج» وأحكم من هذا قول ذلك الرجل الالٰهيّ الصارم عمر بن الخطاب: «إضربوهن بالعرى.» فقد عرف من ألف وثلثمائة سنة أن تحرير المرأة هو تجريرها، وأنها لاتخرج لمصلحة أكثر مما تخرج لاظهار زينتها. فلو مُنعت الثياب الجميلة حبستْها طبيعتها في بيتها. فماذا تقول الشوارع لو نطقت؟ إنها تقول: ياهؤلاء، إنما تطلبونهن معرفة الكثير لا معرفة الواحد . . . !

لقد والله أنكرت أكثر ما قرأت، وسمعت من محاسنهن وفضائلهن وحيلهن. ولقد كان الحجاب معنيّ لصعوبة المرأة واعتزازها، فصار الشارع معنيّ لسهولتها ورخصها؛ وكان مع تحقُّق الصعوبة أو توهّمها أخلاقٌ وطباعٌ في الرجل، فصار مع توهم السهولة أو تحقّقها أخلاق وطباع أخرى على العكس من تلك ما زالت تنمي وتتحول حتى ألجأت القانون أخيراً أن يترقّ عن لمس المرأة في الطريق من «الجنحة» إلى «الجناية».

وتخنّث الشبان والرجال ضروباً من التخنث بهذا الاختلاط وهذا الابتذال، وتحلّلت فيهم طباع الغيرة، فكان هذا سبباً في تغيير نظرتهم إلى النساء، وسبباً في إفساد اعتقادهم، وفي نقض احترامهم، فأقبلوا بالجسم على المرأة وأعرضوا عنها بالقلب، وأخذوها بمعنى الأنوثة وتركوها بمعنى الأمومة؛ ومن هذا قل طلاب الزواج، وكثر رُوّاد الخنا.

ولقد جاءت الى مصر كاتبة إنجليزية وأقامت أشهراً تخالط النساء المحجبات وتدرس معاني الحجاب، فلما رجعت الى بلادها كتبت مقالاً عنوانه «سؤال أحمله من الشرق الى المرأة الغربية» قالت في آخره: «إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيراً، وهذا التنافس الجنسي، وتجريد الجنسين من الحجب المشوّقة الباعثة التي أقامتها الطبيعة بينهما — إذا كان هذا سيصبح كل أثره أن يتولى الرجال عن النساء، وأن يزول من القلوب كل مايحرّك فيها أوتار الحب الزوجي فما الذي نكون قد ربحناه؟ لقد والله تضطرنا هذه الحال الى تغيير خططنا، بل قد نستقرّ طوعا وراء الحجاب الشرقي، لنتعلم من جديد فنّ الحب الحقيقي.»

***

وقال «ع»: لست فيلسوفا، ولكن في يدى حقائقَ من علم الحيـاة لاتأتى الفلسفة بمثلها، وكتابى الذى أقرأ فيه هو الشارع. فأعلم أن العُزّاب من الرجال يتعلم بعضهم من بعض، وهم كاللصوص لايجتمع هؤلاء ولاهؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة. وحياة اللص معناها وجود السرقة، وحياة العزب معناها وجود البغاء والفسق.

ومن حكم الطبيعة على الجنسين أن الفاسق يباهى باظهار فسقه قدرما تخاف الفاسقة من ظهور أمرها؛ وهذه إشارة من الطبيعة الى أن المرأة مسكينة مظلومة. فما ابتذال الحجاب، ولا استهتاك النساء إلا جواب على انتشار العزوبة في الرجال، وكيف يتحول الماء ثلجاً لولا الضغط نازلاً فنازلا إلى ما دون الصفر؟ فهذا الثلج ماءٌ يعتذر من تحوّله وانقلابه بعذر طبيعي قاهر له قوة الضرورة الملجئة، وكذلك المرأة الذالة أو الطامعة أو المتبذلة أو المتهتكة — ماصفاتهن إلا توكيد لأعذارهن. وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربةَ قانون صارم، فالعزب وإن كان رجلاً حراً في نفسه، ولكن رجولته تفرض للأنوثة حقها فيه، فمتى جحد هذا الحق واستكبر عليه رجع حاله مع المرأة إلى مثل شأن الغريم مع غريمه؛ ليس للفصل فيه إلا الدولة وأحكامها وقوتها التنفيذية.

ولذا أطلقت الحرية للرجال فصاروا كلهم أو أكثرهم أعزاباً

فماذا يكون إلا أن تمحى الدولة، وتسقط الأمة، وتتلاشى الفضائل؟ فالعزوبة من هذا جريمة بنفسها، ولاينبغى أن تتربص بها الحكومة حتى تتم، بل يجب اعتبارها باعتبار الجرائم من حيث هى، ويجب تفسير كلمة «العَزَب» فى اللغة بمثل هذا المعنى: إنها شخصية مذكَّرة ساخطة متمردة على حقوق مختلفة للمرأة والنسل والأمة والوطن.

وما ساء رأى العزاب فى النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لايعرفون المرأة إلا فى أسوإ أحوالها وأقبح صفاتها، وهم وحدهم جعلوها كذلك.

إن لهم وجودا محزنا يستمتعون فيه ولكنهم يَهْلكون ويُهْلِكون به. هم والله أساتذة الدروس السافلة فى كل أمة، وهم والله بغاة من الرجال فى حكم البغايا من النساء، يجْرُون جميعاً مجرى واحداً. ومن هى البغىّ فى الأكثر إلا امرأة فاجرة لازوج لها؟ ومن هو العزب فى الأكثر إلا رجل فاسق لازوجة له؟ على أن مع المرأة عذرَ ضعفها أو حاجتها، ولكن ماعذر الرجل؟

ماذا تفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذى اعتاد فوضى الحياة، وسَيرها على غير نظامها، وتحقّقها على أسخف مافيها من الخيال والحقيقة؛ وأى عزب يجد الاستقرار أو تجتمع له أسباب الحياة الفاضلة، وهو قد فقد تلك الروح التى تتم روحه وتنقحها وتمسكها فى دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها، وتحييه بالأرواح الصغيرة التى تشعره التبعة والسيادة معاً، وتمتدّ به ويمتدّ بها فى تاريخ الوطن.

كيف يُعتبر مثلُ هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حىّ مختلّ فى وجود مستعار، يقضى الليل هارباً من حياة النهار، ويقضى النهار نافراً من حياة الليل؛ فيقضى عمره كله هارباً من الحياة، وكأنه لايعيش بروحه كاملة، بل ببعضها، بل بالممكن من بعضها..!

أيّة أسرة شريفة تقبل أن يساكنها رجل عزب، وأيّة خادم عفيفة تطمئن أن تخدم رجلاً عزباً؟ هذه هى لعنة الشرف والعفة لهؤلاء الأعزاب من الرجال!

قال الراوى: وهنا انتفض «س» و «ا» وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة ويرداها إلى حلق «ع». ثم سألني ثلاثتهم أن أسقطها من المقال، بيد أنى رأيت أن خيراً من حذفها أن تكون اللعنة لأعزاب الرجال إلا «س» و «ا» و «ع»...؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

أعظم حادث فى حياة روسو:

٢ ـ روسو ومدام دى ڤرنس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والحقيقة أن مدام دى ڤرنس نفثت فى جان جاك ضرباً غريباً من السحر والجوى، لاهو بالحب الجنسى الخالص، ولاهو بالحب البنوى الخالص، ولاهو بالصداقة الحميمة، بل كان مزيجاً من ذلك كله، يقترن بنوع من عبادة الجمال والسحر، وعاطفة عميقة من العرفان وشكر الصنيعة. وسنرى أن له الى جانب هذه الناحية الأفلاطونية ناحية أخرى. وعلى أى حال فقد كان لهذا السحر الذى بثته مدام دى ڤرنس فى جان جاك أعظم أثر فى تكوين عواطفه وفلسفته فى الجمال والحب والمرأة، وكان مستقى خياله ومشاعره فى بضعة الأعوام التالية التى اكتمل فيها شبابه، وتفتحت أمامه عوالم الحياة. وفى ظلال هذه السعادة أقام جان جاك معتزاً مكرماً يقضى أوقات فراغه فى القراءة ودرس الموسيقى والأحلام اللذيذة، والسمر مع مدام دى ڤرنس. وكان يشعر أن السعادة قد بلغت ذروتها، وأنها لذلك لن تدوم، ويرتجف فرقا كلما تصور يوم البعاد وانقضاء هذا العهد الأمثل.

وأقام روسو على هذا النحو زهاء عام وبعضه، ثم رأت مدام دى ڤرنس أن ترسله الى ليون لقضاء بعض المهام، فسافر اليها، ولم يغب سوى أيام قلائل. ولكنه لما عاد الى أنسى لم يجد «أمه» وموئل سعادته، ولم يستطع أن يعلم شيئاً عن غيابها سوى أنها سافرت الى باريس مع خادمها كلود آنيه، فلم ير سبيلا سوى الانتظار، وأقام وحده بالمنزل يتنسم أخبارها وموعد عودها، وهو يدرس الموسيقى ويؤلف الأناشيد. وهنا يقص علينا روسو عدة حوادث غرامية تافهة وقعت له خلال هذه الفترة. وكانت معرفته بالموسيقى سبباً فى اتصاله ببعض الهواة. ولما طالت غيبة مدام دى ڤرنس، سافر الى جنيف، ثم الى نيوشاتل، وهناك استقر حيناً يكسب عيشه بتدريس الموسيقى، ولكن شبح مدام دى ڤرنس كان يساوره أبداً، وكان العود اليها أبداً أعز أمانيه، فلم تمض عليه بضعة أشهر فى هذا التجوال حتى عاد الى سافوا. وكانت مدام دى ڤرنس، قد غادرت يومئذ أنسى الى شامبرى

واستقرت هناك . فسافر اليها وتحققت أمنيته بالمقام الى جانبها كرة أخرى ، واستطاع بنفوذها أن يحصل على وظيفة فى ديوان مسح الأراضي فى تلك الناحية نفسها ، فكانت سعادة مزدوجة ، وكان الهدوء والسكينة والاستقرار ، وكان ذلك سنة ١٧٣٢

وهنا فقط يكتشف روسو حقيقة مرة غابت عنه طيلة هذه الأعوام الثلاثة ؛ تلك هي علاقة مدام دى ڤرنس بخادمها وأمينها كلودآنيه ؛ فقد عرف روسو فجأة أن الخادم ينعم بحب سيدته ؛ وعرف ذلك من مدام دى ڤرنس ذاتها ، فنى ذات يوم ثارت بين السيدة وخادمها مناقشة عاصفة وجهت اليه خلالها بعض الألفاظ الجارحة ؛ فهرول كلود آنيه خفية الى زجاجة من « اللادونوم » فابتلع ما فيها لكي يزهق نفسه ، ثم أوى الى غرفته ينتظر حشرجة الموت ؛ ورأت سيدته وخليلته الزجاجة الفارغة فأدركت الأمر ، وهرولت صارخة الى غرفته ، ونادت روسو واعترفت له بكل شيء ورجت منه العون ؛ فعاونها على إسعافه ، ونجا الخادم المحبوب . ودهش روسو لغبائه إذ خفيت عليه هذه الحقيقة من قبل . ولكنه لم يشعر نحو كلودآنيه بشيء من الحقد ، برغم أنه يسلبه معبودة قلبه ، لأنه يحرص على سعادتها وهنائها .

***

ولبث روسو مدى الأعوام التالية الى جانب مدام دى ڤرنس ، ولم يفارقها إلا فى فترات قليلة ولأسباب طارئة . كانت شامبرى موطنه ومستقره ، وكانت مدام دى ڤرنس أمه وأسرته وكل شيء فى الوجود بالنسبة اليه . وكانت الحياة عندئذ هادئة منظمة ، وقد أخذ روسو يشعر بشيء من الثقة بنفسه وبمستقبله ؛ وكان يوزع وقته بين عمله ، ودرس الموسيقى ، ومدام دى ڤرنس . وكانت ثمة سعادة أخرى لم يكن يتوقعها روسو ، ترفرف عليه فى ذلك المقام الرغد ، بل كان ثمة حادث لعله أعظم مفاجأة فى حياة روسو . ذلك أن علائقه الساذجة الافلاطونية مع مدام دى ڤرنس تحولت فجأة الى علائق حب عملي . ولذلك التحول قصة غريبة يرويها لنا روسو فى عدة صفحات ساحرة مؤثرة . فقد كان روسو يعطى دروساً فى الموسيقى لبعض أكابر السيدات فى شامبرى ، وكانت علائقه النسوية تزداد بذلك يوماً عن يوم ؛ وكان بين أولئك السيدات ، سيدة تدعى الكونتة دى منتون كان روسو يعلم ابنتها الغناء ؛ وكانت سيدة مضطرمة الأهواء تحب الدسائس الغرامية ، وبينها وبين مدام دى ڤرنس صلة ومنافسات نسوية . فلما اتصلت بجان جاك وقدرت ذكاءه ، ومقدرته على الكتابة الساخرة ونظم الأناشيد والأغانى ، فكرت فى استهوائه والانتفاع بمقدرته ، واستقبلته بعطف وإكرام ، وشعرت مدام دى ڤرنس بذلك ، ففكرت فى انقاذ روسو من شراكها وشراك غيرها من النسوة اللائى يحطن به . والتمست لذلك أغرب وسيلة يمكن تصورها . فاختلت بروسو ذات يوم ، وأفهمته أنها لم تر وسيلة لانقاذه من أخطار الشباب سوى أن تقدم نفسها اليه ، وأن تفتدى بجسمها كل ما يهدده من الأخطار ، وأنها تمهله ثمانية أيام للتفكير والعزم . ويقول لنا روسو إنه دهش لهذه المفاجأة أيما دهشة ، وإنه لم يكن يتوقع قط هذا المصير لعلائقه مع المحسنة اليه ؛ بيد أنه يقول لنا إن ذهنه لم يكن بعيداً عن تصور هذه السعادة ؛ فقد كان يضطرم جوى نحو النساء ؛ ولم يكن قد لامس إحداهن بعد ؛ وإن مدام دى ڤرنس وإن كانت تكبره بنحو عشر سنين ، كانت ماتزال فتية فتانة وافرة الأنوثة والسحر ، ولم يثره أنها كانت خليلة غيره ، وأنها بذلك توزع متاعها على أكثر من رجل ، فقد كانت هذه الشركة مؤلمة حقاً ، ولكنها لم تغير ذرة من عواطفه نحوها .

ويحاول روسو أن يحلل عواطفه نحو مدام دى ڤرنس مرة أخرى . لقد كان يحبها حقاً ، بل كان يهيم بها حباً ؛ ولكن ذلك الهيام كان أقوى من أن يحمله على الرغبة فى وصالها . وقد أنفق هذه الأيام الثمانية فى اضطراب ذهنى لايمكن تصوره ، وكأنها كانت قروناً ثمانية ، ولكنه كان يبغى المزيد منها . ثم جاء اليوم المروع أخيراً ؛ فهرول روسو إليها ، وصرح بالقبول والأذعان ؛ وبر فى الحال بوعده . ويصف لنا روسو ذلك اللقاء المدهش فى تلك العبارات القوية المؤثرة : « لقد توج قلبي كل نذورى دون أن أرغب فى المكافأة . بيد أنى حصلت عليها ، وألفيت نفسى لأول مرة ، بين ذراعى امرأة — وامرأة أعبدها . فهل كنت سعيداً ؟ كلا ! ولقد تذوقت السرور ، ولكن شعوراً قاهراً من الحزن كان يسمم سحره ؛ وكنت أشعر أنى أرتكب عشرة محرم ؛ ولقد بللت صدرها بدموعى مرتين أو ثلاث مرات ، بينما كنت أضمها إلى فى شغف وهيام . أما هى فلم تكن حزينة ولا مضطرمة ، ولكنها كانت ناعمة هادئة . ولم تكن تحدوها الشهوة ، ولم تكن ترجو المتاع ، ولهذا لم تشعر بغتة ، ولم يؤنبها الضمير قط »

وهنا يفيض روسو فى تحليل عواطف مدام دى ڤرنس وميولها الغرامية ، ويحاول أن يعتذر عن أخطائها وزلاتها ؛ فقد

نشأت نشأة حسنة ، ذاتِ فضيلة واستقامة ، وذوق رفيع ، وخلال بديعة ، ولكنها كانت تعنى إلى العقل والفلسفة دون القلب ؛ وقد عنى معلمها وأول عشاقها ، مسيودى تاقل ، بأن يغرس فى ذهنها جميع المبادىء التى تسهل له إغواءها ؛ فعلمها أن الاخلاص الزوجى سخف ، وأن الاجتماع الجنسى أمر تافه ، وأن الفضيلة والعفة والحشمة أمور ظاهرية فقط . فغزتها هذه المبادىء وطغت عليها حتى أصبحت تعتقد دائماً أنه لايصفد الانسان بحب امرأة قدر الوصل . وفى تلك الصحف التى يصف لنا فيها روسو ذلك التحول فى علائقه مع مدام دى ڤرنس ، يبلغ روسو ذروة البلاغة والافتنان ، ولعلها أبدع قطعة فى « الاعترافات »

***

وهكذا تحولت القصة البنوية الأموية إلى قصة غرامية ، وغدا روسو خليل المرأة التى لبث بضعة أعوام يقدسها كأم رؤوم . واستمرت هذه العلاقة مابقى إلى جانبها ، واستمر الخادم كلود آنيه شريكه فى الوصل مدى حين ، ولكنه لم يلبث أن توفى . ثم انتقلت مدام دى ڤرنس وروسو إلى منزل خلوى فى ضيعة « لاشارميت » ، وهنالك قضى روسو ، فى ذلك المقام المنعزل أياماً سعيدة فى الدرس ، مستأثراً بصحبة « أمه » وحبيبته . ثم اعتلت صحته ، واشتد به الهزال والضعف ، وفكر فى السفر لينتجع العافية ، وأشير عليه أن يسافر إلى مونبلييه حتى يجد من الأطباء من يستطيع معالجته ، ولم تمانع مدام دى ڤرنس فى تنفيذ ذلك العزم ، فسافر إلى مونبلييه ، ووقعت له أثناء رحلته بعض حوادث غرامية بثت فى ذهنه إضطراباً وجوى . وبعد أشهر عاد إلى « أمه » وكانت تلك العاطفة المضطرمة التى لبثت مدى أعوام تدفعه إلى جانب مدام دى ڤرنس قد خبت نوعاً ، واستحالت إلى نوع من الصداقة الهادئة ، والظاهر أيضاً أن مدام دى ڤرنس كانت تبحث عن صداقة جديدة وغذاء جديد لعواطفها الهائمة ، فلما عاد روسو ألفى إلى جانبها فى المنزل رجلاً آخر يدعى فنتزنريد ، ولم يلبث روسو أن أدرك من تصرفاته ولهجته أنه غدا صاحبا لمدام دى ڤرنس ، وأنه قد حل مكانه ، فحزن روسو لذلك ولم يطق البقاء حيثما هدمت سعادته ، فسافر إلى ليون ، ولم تبد « أمه » كبير أسف لسفره . وبعد أن أقام بها حيناً عاد إلى مدام دى ڤرنس كرة أخرى ، وأقام بالمنزل حيناً فى عزلة عنها لا يكاد يراها إلا وقت الطعام ، وكانت آخر زياراته لها . وكان يومئذ قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ونضجت دراساته ومواهبه وآنس فى نفسه طموحاً إلى غزو ميدان الحياة الواسع ، فاتجه ببصره إلى باريس ، فودع « أمه » الوداع الأخير ، وسافر إليها تحدوه مختلف العواطف والآمال .

وكان ذلك ختام قصة روسو ومدام دى ڤرنس ، فلم يرهابعد ذلك ولم يحاول رؤيتها ، وألقى به القدر فى باريس الى غمار حياة جديدة عاصفة ؛ ولكنه لم ينس ذكرى المحسنة اليه قط ، ولما توفيت بعد ذلك بنحو عشرين عاماً — سنة ١٧٦٤ — اشتد حزنه لفقدها ، وهو يعرب لنا عن ذلك الحزن فى نفثة مؤثرة فى « الاعترافات » .

محمد عبد الله عنان
المحامى

ماذا يعنى ؟

سيدى الأستاذ البليغ صاحب الرسالة

انى قرأت فى رسالتكم الواحدة والستين كلمة ندّت من الأستاذ كرم ملحم كرم ، وهو يتحدث عن « أدب اليوم » صغيرة فى ذاتها ، ولكن فيها طبيعة كطبيعة (الديناميت) لايمس شيئاً إلاجعله يباباً ، فأكبرتها ، وأعددت فصلاً طويلا فى الرد عليها ، ثم بدالى فقلت : لعل الأستاذ كرم ، لايعنى هذا الذى يفهم من كلمه ، ولعله إذا نبه إليها نظر فيها ثم رجع عنها ، فكفى الله المؤمنين القتال ، وعهدنا بالأستاذ أنه ذكى متأن ، وكاتب مفكر ، فطويت فصلى وبعثت بهذه الكلمة إليكم راجياً منكم أن تنشروها وتسألوه الجواب عنها :

***

ماذا يعنى الأستاذ كرم بقوله ، وهو يتحدث عن روايات ڤولتير وروسو ولامارتين وهوغو : « والدين نفسه يقوم على الروايات ، فماهو كتاب التوراة ، وماهو الانجيل ، وماهو القرآن ؟ أليس للرواية من هذه الكتب أكبر نصيب ؟ » اه .

هل يعنى دين التوراة والانجيل فقط ، فلا ننازعه ولا يكون لنا أن ننازعه وهو صاحب الدار وأدرى بما فيها ، أم يعنى دين القرآن ؟ وهل يعنى أن القرآن رواية كروايات روسو ولامارتين ؟ وان مافيه من عبرة التاريخ الصحيح ، هو ملهاة الرواية الباطلة ؟

***

هذا ما أرجو أن تتفضلوا بسؤال الأستاذ عنه ، وأن يتفضل بإيضاحه .

على الطنطاوى
عضو « جمعية الهداية الاسلامية » بدمشق